مسؤولية العلماء في إحياء الحالة القيمية

مجلة الحوزة ، العدد المزدوج ٦٨ و ٦٩

ترجمة : وسام حسن

تحيا المجتمعات بالقيم والكمالات المعنوية ، وتموت بانتشار الرذائل وغياب الأخلاق الكريمة .

وبينما يدلّل اهتمام الناس برسوخ الحالة القيمية على سلامة المجتمع ، يبرهن تصاعد الحالة اللاقيمية على مرض المجتمع . فمصير الأفراد الذين لا يمتلكون قِيماً إنسانية السقوطُ والانحطاط ، وليس أمام اللاقيميين في الميادين السياسية والاجتماعية غير الفشل والخسران .

يدور بحثنا حول ماهية دور علماء الدين في الحياة المعنوية للمسلمين ، والوسائل التي يمكنهم اعتمادها لترسيخ القيم الأخلاقية . إذ تستبطن وظائف علماء الدين ـ باعتبارهم ورثة الأنبياء ـ مسؤولية ضخمة يضاعفها مركزهم الاجتماعي في نشر القيم وتعزيزها . فتبيين مكارم الأخلاق وتعميقها كان من أهم وظائف الأنبياء على أساس أن تزكية النفوس كانت تأتي في مقدّمة أولوياتهم . فجميع صحف إبراهيم الخليل تضمّنت حِكماً وعِبراً وحثّاً للناس على الكمالات الإنسانية ، كما شغلت الموعظة والنصيحة والأخلاق مساحات واسعة من توراة موسى[١] وإنجيل عيسى عليهما السلام[٢] .

---

(١) الشيخ الطوسي ، الأمالي ، ص ٥٤٠ ، تحقيق مؤسسة البعثة ، دار الثقافة ، بيروت .

(٢) العلامة المجلسي ، بحار الأنوار ، ج ١٤ ، ص ٢٣٤ ، مؤسسة الوفاء ؛ الكتاب المقدّس ، العهد الجديد ، إنجيل متّى : ٧ و ٩ جمعية نشر الكتب المقدّسة .

وعدّ القرآن السرّ وراء بعث الأنبياء كاملاً في تربية المجتمع ، وقال النبيّ ﷺ : «**إنّما بُعِثْتُ لأتمّم مكارم الأخلاق**»[٣]

وكان للشؤون التربوية والأخلاقية نصيب وافر في الأحاديث النبويّة ، فقد كان عليه السلام يوصي مبعوثيه بدعوة الناس إلى الأخلاق الحسنة . «**يامعاذ علّمهم كتاب الله وأحسِن أدبهم على الأخلاق الصالحة**»[٤] .

وقد تراجعت هذه الحركة الأخلاقية الكبيرة ، في أعقاب وفاة الرسول ﷺ ، بسبب الفتوحات الواسعة وتدفّق الغنائم على المسلمين والسيرة المنحرفة للمتصدّين للأمور . فنشأ قطّاع بثقافة وأفكار ونظرة جديدة للحياة ، وأُقْصِيَت مفاهيم الزهد ورفض الدنيا التي كانت في صلب الثقافة في صدر الإسلام .

وكان الإمام علي عليه السلام وحيداً وسط ضجيج الإخلاد إلى الدنيا وحبّ الدعة ، يدعو الناس إلى التقوى ويذكّرهم بالمثل الإنسانية العالية .

وعندما تسلّم عليه السلام مقاليد الأمور ، كان همّه الأكبر وشغله الشاغل معالجة مرض انعدام التقوى الذي تأصّل في النفوس ، ولذلك بذل جميع مساعيه لإصلاح المجتمع ، وتمحورت أغلب خطبه حول التقوى والزهد في الدنيا والابتعاد عن الأخلاق المنحرفة .

وبهذا الصدد يقول الشهيد مطهري :

« من مجموع ٢٣٩ خطبة جمعها السيّد الرضي ، ثمّة ٨٦ خطبة في الموعظة أو ـ في الأقل ـ اشتملت على مجموعة من المواعظ . ومن مجموع ٧٩ كتاباً جمعها ، هناك ٢٥ رسالة كلّها في الموعظة أو تتضمّن مقاطع في النصائح والوعظ [٥] .

وكذلك اهتم بقيّة الأئمّة بنشر مكارم الأخلاق ، فيما تدلّل المواعظ والنصائح التي وردت عنهم على المكانة السامية للأخلاق في مدرسة الأئمّة عليهم السلام .

والآن باتت المسؤولية في نشر مكارم الأخلاق على عاتق العلماء . فالفقيه الحقيقي هو الذي يَعرف القيم ويعمل بها ، ويبيّن للناس السلوك الصحيح علاوة على فهم العقائد والشرائع .

---

(٣) الأمالي ، ص ٥٩٦ .

(٤) بحار الأنوار ج ١٤ ، ص ١٢٦ .

عن أبان بن تغلب ، عن أبي جعفر عليه السلام أنه سُئل عن مسألة فأجاب فيها. قال : فقال الرجل : إن الفقهاء لا يقولون هذا ، فقال : «**ياويحك ، وهل رأيت فقيهاً قط ! إن الفقيه حق الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة ، المتمسك بسنة النبي صلى الله عليه وآله**».

يقول الفيض الكاشاني موضّحاً هذا الحديث :

« (ويح) كلمة رحمة وإنما جعل هذه الصفات الثلاث علامة الفقيه الحقيقي لأن الأوليين دليل على معرفته بالله واليوم الآخر ، والأخيرة دليل معرفته بالأخلاق السنتية النبوية والشرائع المصطفوية وهي تمام معنى الفقه» [٦] .

وكان صاحب الجواهر ، يرى من غير المناسب للعلماء اعتزال الناس ، وحصر اهتمامهم بفهم المعارف والأحكام ، بل كان يرى للفقيه لزوم تعلّم الحكمة والأخلاق والعمل في أوساط الناس والترويج للأخلاق بينهم والعمل بها ، إلى جانب الكتاب والسنّة . فقد جاء في رسالة بعثها لأحد علماء الهند :

« ثم لا يخفاك أنّه من حيث أنْ مَنّ الله عليك بحسن التوفيق والتسديد ومنحك بالفضل والتأييد أن تجتهد في تعليم المهديّين وإرشاد المضلّين وتسديد الملّة والدين فإنّها من وظايف المجتهدين وسياسة الأئمّة الطاهرين ، وأنْ تصرف همّتك فيما يُرضي الله ، وتخلص نفسك في طاعة الله وتجهد في تحصيل القربات ونيل السعادات ، ولا تقطع عنّا أخبارك على الدوام . والسلام »[٧] .

ويتطلّب النهوض بهذه المسؤولية الضخمة ، التحرّك بخطى ثابتة نحو **تبيين المفاهيم** و **الترويج للقيم** . وتجدر مراعاة عدّة أمور في تبيين الموضوعات الأخلاقية :

١ ـ ترسيم الحدود

من وظائف الفقهاء تبيين حدود المفاهيم القيمية . وعلى العلماء أن يفصلوا مكارم الأخلاق عن غيرها وأن يدركوا المفاهيم القيمية بشكل صحيح . فعدم وضوح المفاهيم الأخلاقية للناس كان منشأً لكثير من الانحرافات الفكرية في التاريخ الإسلامي . فعدم

---

(٦) الفيض الكاشاني ، الوافي ، ١ ، ص ١٦٤ ، مكتبة الإمام علي ، إصفهان .

(٧) ميرزا محمد مهدي لكهنوي ، نجوم السماء ، ١ ، ص ١٠٠ ، بصيرتي ، قم .

الوضوح في حدود مفاهيم الزهد والتقوى والإيثار أدّى بعددٍ من أصحاب النبيّ ﷺ إلى أن يلتبس عليهم الأمر بين الزهد والرهبانية[٨] ، بل إنّ التمسّك ببعض القيم الأخلاقية كان منشأً لتقديمها على طاعة النبي ﷺ : «**إنّ النبي رأى رجلاً يسوق بدنة فقال له : إركبها . فقال: يارسول الله إنّها بدنة . قال : اركبها . قال : إنّها بدنة . قال : اركبها ويلك في الثالثة**»[٩] .

إنّ تمرُّد هذا الرجل على أمر الرسول ﷺ ناشئ من الفهم الخاطئ لاحترام البُدن . بل إن كثيراً من التيّارات مثل الانعزالية والملامية وغيرها نشأت من الفهم الخاطئ لمفاهيم من قبيل التوكل والإخلاص ونحوهما .

وقد أمضى الأئمّة عليهم السلام جانباً مهمّاً من أوقاتهم في توضيح حدود المفاهيم الأخلاقية. فمثلما قاموا ببيان العقائد والأحكام للناس ، أوضحوا المفاهيم القيمية لهم، لتفادي سقوط الناس في هاوية الافراط أو التفريط . وقد ورد في **معاني الأخبار** للشيخ الصدوق رضوان الله عليه رسماً لحدود بعض القيم كالمروة والتقوى والزهد والورع ، وحسن الخلق ، والسخاء ، والتسامح والجود ، وكذلك لحدود بعض مفاهيم الضدّ القيمي ، كالكبر والحسد والكذب .

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال : جاءت امرأة عثمان بن مظعون إلى النبي ﷺ فقالت يا رسول الله إنّ عثمان يصوم النهار ويقوم الليل ، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً يحمل نعليه حتى جاء إلى عثمان فوجده يصلّي ، فانصرف عثمان حين رأى رسول‌الله ﷺ فقال له : ياعثمان لَم يرسلني الله بالرهبانية ، ولكن بعثني بالحنيفية السهلة السمحة ، أصوم وأصلي وألمس أهلي ، فمن أحبّ فطرتي فليستنّ بسنّتي ، ومن سنّتي النكاح [١٠].

وقد تعاضدت مجموعة من العوامل الأخرى في تحريف المفاهيم القيمية مثل تداخل الأفكار الوافدة بالثقافة الإسلامية ، والإعلام المضلِّل الذي كان يقف وراءه المفسدون والفجّار ، وكانت مواقف الائمّة عليهم السلام الحكيمة تحول دون تنامي تلك الانحرافات .

---

(٨) بحار الأنوار ٢٢، ص ٢٦٤.

(٩) الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ١، ص ١٦٣ ، ناصر خسرو ، طهران .

(١٠) الشيخ الصدوق ، معاني الأخبار ، ١١٩ ، دار المعرفة ، بيروت .

فمثلاً ، تعدّ الفتوّة من الأخلاق الإنسانية الرفيعة . وقد امتدح الإسلام الفتيان . وكان التشيّع مصدر الفتوة وكانت الكوفة منطلقها . فقد دفع ظلم بني أميّة ومن بعدهم بني العبّاس وجورهم مجموعة من الفتيان إلى التكاتف فيما بينهم من أجل الترويج لأخلاق الفتوة والانتصار للمحرومين والمظلومين مقتدين في ذلك بسيرة مولاهم(١١) . فقدّموا خدمات كبيرة للمجتمع الإسلامي ، وضربوا على يد كثير من الظالمين ونصروا المظلومين في مواقف مصيرية . ولكن في القرن الثاني حيث شاعت في أوساط الشباب الأخلاق الجاهلية كشرب الخمر والقمار والغناء واللهو الأثيم ، عدّ بعضهم هذه الأخلاق من مقوّمات المروّة والفتوّة ، فدنّسوا هذه الخصيصة الحميدة . ونهض الإمام الصادق عليه السلام بتكليفه بإزاء هذا الانحراف ، فبيّن حدود الفتوّة والمروّة وحذّر الشباب من الانحراف . فقد سأل أبو قتادة القمي الإمام الصادق عليه السلام عن الفتوّة ، فأجاب سلام الله عليه :

«أتظنّون الفتوّة بالفسق والفجور ؟! إنما المروءة والفتوة طعام موضوع ، ونائل مبذول ، وبرّ معروف ، وأذى مكفوف ، وأما تلك فشطارة وفسق »(١٢) .

وننقل نموذجاً آخر نجد فيه أن الإمام الصادق عليه السلام واجه نفوذ الثقافة الإقليمية في المفاهيم القيمية ، ليعرض حيالها المعنى الصحيح :

«مرّ بجعفر بن محمد رجل وهو يتغذى وعنده أصحابه . فلم يسلّم ذلك الرجل عليهم ودعاه جعفر إلى الطعام . فقيل له : السنّة أن يسلّم ثم يدعى وقد ترك السلام على محمّد . فقال عليه السلام : **هذا فقه عراقي فيه بخل** »(١٣) .

يفيد هذا النصّ عن الصادق عليه السلام بأن للبيئة والقيم الإقليمية المذمومة دوراً في تشكيل الاستنباط الفقهي والمفاهيم القيمية . فبخل العراقيين وقتذاك صار سبباً في أن تبدو الثقافة اللاقيمية ، قيمية ، وأن تشيع العادات المذمومة كسنن دينية .

وعليه تكون مسؤولية الفقيه البحث والتمعّن بدقّة في الانحرافات الفكرية ليعرف أسبابها ، ثم يعرض المفاهيم الأخلاقية على أصالتها .

---

(١١) د. كامل مصطفى الشيبي « همبستگي ميان تصوف وتشيع » ترجمة علي أكبر شهابي ص ٢٦٥ جامعة طهران .

(١٢) معاني الأخبار ، ص ١١٩ .

(١٣) خواجه نصير الدين الطوسي ، أخلاق محتشمي ، ص ٤٤٩ ، جامعة طهران .

٢ ـ مراعاة الزمان والمكان

تنشطر القضايا القيمية إلى شطرين :

أحدهما : القضايا التي لا تقبل التغيير ، وتظل ثابتة على مرّ العصور .

والآخر : القضايا المتغيّرة ، التي تكون قيمية في عصر ما ، ولا قيمية في عصر آخر ، ومثالها الآداب الاجتماعية التي تشكّل جانباً من الأخلاق .

فمسايرة الناس في نمط معيشتهم ومسكنهم ولباسهم وطعامهم أمر ممدوح . فالفقر الشديد في عصر الإمام علي عليه السلام جعل الإمام عليه السلام يلبس ثياباً رخيصة وبسيطة . إلّا أن الرفاه النسبي الذي عاشه الناس في عصر الإمام الصادق عليه السلام جعل ارتداء ثياب مماثلة لثياب عصر الإمام علي عليه السلام أمراً ضد القيمية والآداب ، وموجباً لإهانة المرء .

فالأئمة عليهم السلام كانوا يلاحظون أثر المكان والزمان في تغيير القيم .

وفي هذا الإطار يقول حمّاد بن عثمان :

«كنت حاضراً عند أبي عبد الله عليه السلام إذ قال رجل : أصلحك الله ذكرت أن عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس الخشن ، يلبس القميص بأربعة دراهم ، وما أشدّ ذلك وترى عليك اللباس الجيّد ؟ قال : فقال له : إنّ علي بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر، ولو لبس مثل ذلك اليوم لشهر به فخير لباس كل زمان لباس أهله ، غير أن قائمنا إذا قام لبس لباس علي عليه السلام وسار بسيرته »[١٤] .

وأجاب عليه السلام عبّاد بن كثير البصري الذي انتقد نمط معيشته بقوله :

«ويلك ياعبّاد (من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق) إن الله عزّ وجل إذا أنعم على عبد نعمة أحبّ ان يراها عليه ، ليس به بأس »[١٥] .

وكان الإمام الرضا عليه السلام يوصي أصحابه بمواكبة حركية الزمان في الآداب الاجتماعية ويحذّرهم من التفرّد فيها . وكان يلبس ما يلبسه أهل عصره .

---

(١٤) الكليني ، فروع الكافي ، ج٦ ، ص ٤٤٤ ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت .

(١٥) بحار الأنوار ٤٧ ، ص ٣٦١ .

وعندما أشْكل عليه بعضهم بشأن طريقة معيشته ولباسه ، أجاب عليه السلام :

«إن أهل الضعف من مواليّ يحبّون أن أجلس على اللبود وألبس الخشن ، وليس يحتمل الزمان ذلك»(١٦) .

هذه الشواهد مؤشّرات على مراعاة الائمّة عليهم السلام لأنماط معيشة الناس ومأكلهم وملبسهم وآدابهم الاجتماعية . فأنماط المعيشة في كل عصر تنعكس على القيم فتغيّرها . وعلى هذا الأساس يطالعنا هذا النص عن الشهيد الأوّل في باب احترام المؤمن: « **يجوز تعظيم المؤمن بما جرت به عادة الزمان وإن لم يكن منقولاً عن السلف لدلالة العمومات عليه** » (١٧) .

وهنا تصبح وظيفة الفقيه ، مراعاة نمط معيشة الناس في عصره لدى استنباط القضايا الأخلاقية .

٣ـ العلاقة بين الفقه والأخلاق

هل يوجد ارتباط بين القضايا الأخلاقية والفقه ، أم لا ؟ يبدو للوهلة الأولى بملاحظة التقسيم الاصطلاحي أنه ليس ثمّة ارتباط بين الأخلاق والفقه .

فمجال الفقه هو الأحكام الفرعية في حين إن القضايا القيمية تقع خارج هذا المجال. لكنّنا نجد من خلال رؤية أوسع أنّ دائرة مسؤولية الفقيه تشمل الأخلاق أيضاً . فبغضّ النظر عن أن الفقه في المنظور الديني يشمل العقائد والشرائع والأخلاق ، وبحسب تعبير العلّامة المجلسي من أنه :

«يُطلق الفقيه غالباً في الأخبار على العالِم العامِل الخبير بعيوب النفس وآفاتها التارك للدنيا الزاهد فيها ، الراغب إلى ما عنده تعالى من نعيمه وقربه ووصاله»(١٨) . فإنّ للكثير من الموضوعات الأخلاقية علاقة وثيقة بالفقه ، فينبغي للفقيه أن يبيّن حكمها في مرحلتي تحديد الموضوع وتحديد الحكم .

فمثلاً ، لصلة الرحم ، أحكام كثيرة : ما هي صلة الرحم ؟ ما هي حدودها ؟ واجبة

---

(١٦) بحار الأنوار ٧٦، ص ٣٠٩.

(١٧) الشهيد الأوّل ، الفوائد والعوائد ٢ ، ص ١٥٩ مكتبة المفيد ، قم .

(١٨) بحار الأنوار ٢: ١٥٨.

أم مستحبّة ؟ أو ، ما هي الغيبة ؟ ما هي أقسامها ؟ ما هي مواردها المحرمة والجائزة ؟.. وعشرات القضايا المماثلة المطروحة في مجال حكم الفقيه .

وثمّة كثير من الإشكاليات التي يواجهها المكلّفون في إطار القضايا القيمية واللاقيمية .

ويخطئ الذين لا يتشدّدون في توضيح وفهم الآيات والروايات التي ترغّب بالحالة القيمية وتحذّر من الحالة اللاقيمية ، باعتبارها إرشادية وغير مولوية وأنها تتحدث عن أمور استحبابية أو أن هناك تسامحاً في أدلّة السنن .

كما يرد الإشكال على قول صاحب « تحف العقول » :

« وأسقطت الأسانيد تخفيفاً وإيجازاً وأن أكثره لي سماعاً ولأنّ أكثره آداب...»[١٩] ، لأنّ :

١ ـ كثيراً من الروايات الأخلاقية تبيّن حكماً مولويّاً . فقد يُتصوَّر أن مفهومات من قبيل : القناعة والزهد والإحسان والإيثار والإنفاق والقرض لا تستبطن قواعد إلزامية ، ولذا لا يتمّ التركيز عليها ، بينما تمثّل هذه المفهومات أصول وركائز المجتمع الإسلامي. وإنّ الأهمية الكبيرة التي أولاها القرآن والسنّة بالقضايا القيمية تدلّل على أنّها فوق الموعظة والنصيحة ولا تقتصر عليهما .

٢ ـ إذا حققنا في مصادر بعض الآداب والسنن التي أوصت بها الروايات وراجت بين الناس لانكشف أن لا أساس لها وأن التسامح في إسنادها للدين قد أضرّ بالدين .

وهذا الأمر يدعو إلى التدقيق التامّ في الأحكام الفقهية ثم إيضاح التكاليف الشرعية.

٤ ـ ترابط الأخلاق ببقيّة الموضوعات الدينية

إنّ الأحكام والموضوعات الإسلامية تشكّل منظومة واحدة ، وان كلّاً منها يكتسب معناه من خلال ارتباطه بالآخر . فطرح الموضوعات كلّاً على حِدة من دون ملاحظة ارتباطها بالموضوعات الأخرى يوقعنا في إشكاليات فضلاً عن عدم جامعيته وقصوره في توضيح الإجابات .

فمثلاً : طرح القضايا الجهادية ، من دون الأخذ بالاعتبار القيم الأخلاقية ينتهي إلى

---

(١٩) ابن شعبة ، تحف العقول ، ص ١١ المقدّمة ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت .

القساوة ويصوّر الإسلام دين دم وسيف . أو طرح القضايا الاقتصادية والمالية، من دون ربطها بالأخلاق يستتبع التكاثر والاحتكار أو الاكتفاء بالكلام وإعطاء الوعود المثالية من دون التخطيط للاقتصاد والوضع المعيشي ، يوقع الناس بين أنياب الفقر . أو التركيز على التواضع من دون ملاحظة كرامة الإنسان يَسْتجرّ الذلّة والهوان .

ويجب البحث عن السّرّ في ظهور الأفكار الملامية والصوفية في النظرة أحادية الجانب للقضايا الإسلامية . فالقرآن في طرحه القضايا ربط بين العقيدة والشريعة والأخلاق ، وفسَّر كلّاً منها من خلال ارتباطه بالآخر . ففي تناوله للحرب اعتبر التقوى ظهيراً لها ، ولم يعترف باقتصاد لا يقوم على أساس الإيمان والقيم الإنسانية ، وعلّق سلامة أركان الأسرة على حفظ مكارم الأخلاق . فيجدر بمفسّري الشريعة أن يلاحظوا جميع الجوانب والروابط في طرحهم للقضايا الأخلاقية .

يقول أحد العلماء البارزين :

« . . . إنّ جميع الأضرار التي أصابتنا خلال هذا العقد ، ناجمة عن فقدان الفضائل الأخلاقية . فالقرآن يصف نفسه بالنور لأنّه ربط بين الفلسفة والأخلاق وبين السياسة والأخلاق وبين الحرب والأخلاق . أمّا نحن فقد دوّنّا تلك البحوث السياسية والفقهية والحقوقية والاقتصادية بمعزل عن الأخلاق ، فلم تُحلّ مشكلتنا . فذلك الذي يعتبر الاقتصاد البنية التحتية للفقه والأخلاق والحقوق ، يفكّر بشكل آخر. مثلاً : إنّ كلمة ﴿ **أوفوا بالعقود** ﴾ تمثّل محور البحوث الفقهية عند فقهائنا ، لكن من دون ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ التي جاءت في صدرها . و﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾ تشكّل محور البحث الفقهي لفقهائنا ، لكن بمعزل عن ﴿ **يا أولي الألباب لعلّكم تتّقون** ﴾ حيث ربط القصاص بالتقوى . ربط بين هذا الحكم والفضيلة الأخلاقية في القصاص الفردي والجمعي تحت عنوان الحرب . . . »[٢٠] .

الدعوة للأخلاق

حريّ بالعلماء ـ إضافة إلى تبيين المفهومات الأخلاقية ـ توصيل مكارم الأخلاق إلى الناس . ومن هنا يُنتظر من خطيب الجمعة أن يدعو الناس إلى الأعمال الحسنة

---

(٢٠) گفتارهاي حقوق ، «مجموعه سخنرانيهاي چهارمين گردهمايي دفتر حوزه و دانشگاه » ، كلمة آية الله جوادي آملي ١٢٥ ، قدس .

ويحذّرهم من الأعمال السيئة : «إنّما جُعلت الخطبة يوم الجمعة ، لأنّ الجمعة مشهد عام فأراد أن يكون للأمير سبب إلى موعظتهم وترغيبهم في الطاعة وترهيبهم من المعصية وتوقيفهم على ما أراد من مصلحة دينهم ودنياهم »(٢١) .

إنّ التحدّث إلى الناس وترغيبهم بالأعمال الصالحة وترهيبهم من الأعمال السيّئة وديمومة هذا الأمر والتشديد عليه ، يثبت الحسن ويوهن السيّئ .

ولهذا يبذل المغرضون مجهودات ضخمة للتقليل من شأن التبليغ الديني والوعظ والإرشاد ، ولإسقاط الناصحين والواعظين من أعين الناس ولإبعاد العلماء الحقيقيين عن هذه النشاطات .

وقد كان لهذه المجهودات تأثير على بعض الناس حيث باتوا يزدرون بالمبلّغين الحقيقيين ، بل إنّ تأثيرات هذه الحركة المخطّطة والمُعدّة وصلت إلى بعض العلماء ، حيث افتعل الذرائع ليعتزل المنبر ، ويترك الوعظ للطلبة الناشئين ، في حين كان الوعّاظ من الشخصيات العلمية البارزة . لنقرأ النصّ الخمينيّ الآتي :

«من الممكن أن الأيادي الملوّثة بالتضليل والإعلام السيّئ أظهرت البرامج الأخلاقية والإصلاحية عديمة الأهمية ، واعتلاء المنبر للوعظ والنصيحة لا يتناسب مع المقام العلمي . فاليوم في بعض الحوزات يعتبرون صعود المنبر والوعظ عاراً ، غافلين عن أن الأمير عليه السلام كان منبرياً ، ينصح الناس ويرشدهم من على المنابر ، وهكذا كان بقيّة الأئمّة عليهم السلام »(٢٢) .

وقال السيّد الرضي : « إنّه لما خطب بهذه الخطبة اقشعرّت لها الجلود ، وبكت العيون ، ورجفت القلوب »(٢٣) .

ويقتدي العلماء الكبار بالأئمّة عليهم السلام بالاهتمام في الدعوة إلى مكارم الأخلاق . فتحتشد مجالس الوعظ في « أمالي » الشيخ الصدوق والشيخ المفيد والشيخ الطوسي . ففي وسط ضجيج أبناء الدنيا وجهل الحكّام وتعصّبهم وشيوع الفساد كان الفضل لمواعظ العلماء التي أيقظت الناس من الغفلة وهدّت أركان الفساد . وقد قيل :

---

(٢١) الحر العاملي ، وسائل الشيعة ، ج٥ ، ص ٤٠ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٢٢) الإمام الخميني ، الجهاد الأكبر ، ص ٤٤ .

(٢٣) نهج البلاغة ، صبحي الصالح ، ذيل الخطبة ٨٣ .

«من بين الخطابات الدينية تميّزت مواعظ الفصحاء ـ سواء كانوا علماء أم لم يكونوا ـ بأنها الأشدّ تأثيراً والأقوى والأكثر شعبية . فهؤلاء كانوا يعظون الناس في أيّام شهر رمضان أو الجمعة بعد الصلاة . وقد جرت العادة وقتذاك على دعوة واعظ معروف ليعظ الناس ويخوّفهم من الله ، وفي بعض الأحيان كانوا يسمعون من الواعظ كلمات مهولة»[٢٤] .

وكان للحوزات برامج للدعوة إلى مكارم الأخلاق . ففي النصف الأوّل من القرن الرابع قسّم أبو الحسن علي بن حسين المتصدّي لمدرسة بيهق أوقات الطلّاب إلى ثلاثة أقسام ؛ الأوّل : للتدريس ، والثاني : لإملاء الحديث ، والثالث : للتذكّر ووعظ المسلمين[٢٥].

وفيما بعد اتّسعت دائرة الوعظ والنصائح الأخلاقية ، فظهر وعّاظ معروفون في العالم الإسلامي ، كانت خطبهم تهزّ كيان الحاضرين ، وتُحدث تغييراً في نفوس الناس وبخاصة الشباب باتجاه الصلاح . ومن بين الوعّاظ المعروفين : أحمد الغزالي[٢٦] ومولانا حسين كاشفي المعروف بالواعظ (المتوفى سنة ٣١٠)[٢٧] ، والواعظ القزويني[٢٨] ، وفاضل دربندي[٢٩] ، والشيخ جعفر الشوشتري[٣٠] ، وسيد حسين الواعظ[٣١] . ومن المعاصرين ميرزا علي آقا الشيرازي ، الذي كان يرتقي المنبر ويعظ الناس مع ما يتمتع به من مقامات عالية وشخصية اجتماعية وتخصّص في الفقه والفلسفة والأدب العربي والفارسي والطب القديم . وقد كانت مواعظه تلج القلوب لأنّها صادرة من أعماق روحه . وكان علماء قم الكبار إذا زار مدينتهم يلتمسونه لكي يصعد المنبر ويقوم بالوعظ[٣٢] .

---

(٢٤) آدم متز ، « تمدن إسلامي در قرن چهارم هجري » ، ترجمة علي رضا ذكاوتي قراغزلو ج٢ ، ص ٦٨ ، أمير كبير .

(٢٥) ذبيح الله صفا ، تاريخ علوم وأدبيات إيران ، ص ١١ ؛ ابن سينا ، نقلاً عن تاريخ بيهقي ، ص ١٥٨ .

(٢٦) مجموعه آثار فارسي أحمد غزالي، أحمد مجاهد ، ص ١٢٦ ، المقدّمة ، جامعة طهران .

(٢٧) كمال الدين حسين كاشفي ، الرسالة العلية في الأحاديث النبوية ، ص ٤ من المقدّمة ، انتشارات علمي وفرهنگي ، طهران .

(٢٨) ميرزا محمد طاهر نصر آبادي « تذكرة نصر آبادي » ص ١٧٢ ، مروي .

(٢٩) نجوم السماء ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

(٣٠) ريحانة الأدب ، ميرزا محمد علي مدرس ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ ، خيام .

(٣١) نجوم السماء ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

(٣٢) الشهيد مطهري ، سيري در نهج البلاغة ، ، ص ١١ .

كذلك كان للعارف المعروف الحاج ميرزا جواد آقا ملكي درساً مزدهراً في الأخلاق ، كان يبذل فيه مساعي كبيرة من أجل تربية الطلّاب وتهذيب أخلاقهم . ففي قم، كان له درسان في الأخلاق ؛ أحدهما في منزله للخواص ، والآخر في مدرسة الفيضية للعموم(٣٣) .

وكان إمام الأمّة شديد الاهتمام بتهذيب الأخلاق . ففي بداية تدريسه الأخلاق ، كان يتناول قضايا أخلاقية من « منازل السائرين » ، وكان يحضر درسه آنذاك بعض الطلّاب الكفوئين .

وقد اتّسع الدرس تدريجياً فشارك في حضوره ـ إضافة إلى الطلّاب ـ التجّار والمتدينون . وانسجاماً مع تفاعل الناس ضاعف الإمام درسه فتحوّل إلى درسين في الأسبوع .

وقد اضطربت أجهزة رضاخان التي رأت أن الدرس يضرّ بالنظام ، فوضعت العراقيل لتعطيل الدرس ، إلّا أن الإمام قاوم سياساتهم وواصل الدرس حتى تصرّم عهد رضاخان الأسود ، فاستعاد الدرس إشراقه ، واستمرّ ثماني سنوات ، فانتفع به عدد كبير من الأفاضل والطلاب ، الذين أضحوا بدورهم أساطين لمحافل أخلاقية أخرى (٣٤) . وقد واصل الإمام في النجف ، منهاجه ، مستثمراً الفرص لتربية الطلاب على الأخلاق الفاضلة .

الاستفادة من الأساليب

لابدّ لعلماء الدين العاملين في مجال تربية الناس على الأخلاق الحسنة أن يتعرّفوا على الطرق الناجعة في التربية الإنسانية ، ثم اعتمادها في عملهم .

ـ فمن جملة الأساليب الناجعة والمثمرة التي أشار إليها جميع أصحاب السيرة والمؤرخين ، أسلوب تعامل النبي ﷺ مع أبناء الجزيرة العربية آنذاك . فمع ابتعادهم عن الأخلاق الحسنة والسلوك الصحيح إلّا أنّ النبيّ ﷺ تعامل معهم بالشكل الذي جعلهم يتخلقون في وقت قصير بالأخلاق الإسلامية ويتّصفون بالصفات الحميدة ، ثم يتفوّقون على أهل زمانهم .

---

(٣٣) رضا مختاري « سيما فرزانگان » ج٣ ، ص ٦٤ . دفتر تبليغات اسلامي .

(٣٤) حميد روحاني ، بررسي و تحليل از نهضت امام خميني ، ج١ ، ص ٤٠ نشر أحرار .

«فعن أبي هريرة قال : قام أعرابيّ فبال في المسجد ، فتناوله الناس ، فقال لهم رسول الله ﷺ : **دعوه فأهريقوا على بوله سجل ماء أو ذنوباً من ماء فإنما بُعثتم ميسّرين ولم تُبعثوا معسّرين**»(٣٥) .

فقد استطاع النبي ﷺ برفقه ومداراته توصيل رسالته إلى أعماق النفوس ، وتربية الناس على الأخلاق الحسنة . واذا اقتدى علماء الدين بهذه السيرة ، فإنهم سيقدرون على اقتلاع جذور الأخلاق الذميمة ، وترسيخ الأخلاق الحميدة .

ـ الأسلوب الآخر المستخدم اليوم لعلاج المصابين بالأمراض الأخلاقية ، هو علم النفس .

فعلم النفس يبحث في أسباب الأمراض ، فهو يشبه عمل طبيب أخلاقي ؛ فتوافر معرفته يفيد كثيراً المهتمين بإصلاح الناس والساعين إلى إيجاد مجتمع سليم ، ويعينهم على أن يخطوا خطوات أفضل في إطار مسؤولياتهم .

يقول أحد علماء النفس :

«يعتبر الأخلاقيون الرياء عملاً سيئاً ويستنكرونه ، لكن علماء النفس ، يستقصون أسباب الرياء ، بمعنى أنّهم يتساءلون عن السبب الذي يجعل الناس مرائين ، ومعلوم أنّ ذم الرياء لا تترتّب عليه فائدة كبيرة . فمن دون معرفة السبب الأساس له ، لا يمكن القضاء عليه .

ومن المؤكّد أن إحدى أكبر الخدمات التي بوسع عالم الدين أن يقدّمها للبشرية ، هي اكتشاف سبب وعلاج الرياء والكسل والحسد والغش والتمرّد والانهيار الروحي والاضطراب . ومع أن علاج هذه الأمراض السلوكية ضمن مهامّ علماء الدين إلّا أن هذا العلاج لن يكون كاملاً إذا جرى دون معرفة السبب الأساس لكل مرض»(٣٦) .

وبدراسة جذور المفاسد الأخلاقية والسلوكية ، يتبدّى أنّ هذه الجذور تختلف باختلاف الأفراد ، فقد ينجرّ شخص إلى الفساد بسبب الفقر ، وآخر بسبب الغنى وثالث بسبب تصوّرات خاطئة .

---

(٣٥) مسند أحمد بن حنبل ج٢ ، ص ٢٨٢ دار الفكر .

(٣٦) ج ، أ. هدفيلد ، روان شناسي وأخلاق ، ترجمة علي پريور ، ص ٢٧٣ ، بنگاه ترجمة ونشر كتاب ، طهران .

ينقل «شاردن» في رحلته ، حواراً بين «ماركي برفايلي» وهو من عظماء فرنسا و«شفاليه تمريكور» أحد قراصنة البحر ، فيكتب :

«يسأل ماركي من تمريكور : شفاليه ، هل تسوّغ ممارساتك من اعتداء على الأعراض ، وقتل ، وسطو ، واعتداء على الأبرياء ؟ ألا تخاف وتهتزّ من كل هذه الجرائم والاعتداءات التي ارتكبتها بحق المقدّسات ؟

وبعبارة أخرى : ألا تخجل من كل الأضرار الجسيمة والاضطرابات التي تسبَّبت بها والرعب الذي أشعْته ؟ كيف يكون لك أمل في دخول الجنّة ومجالسة المحسنين بعد كل الجرائم التي اقترفتها ؟

ألا تعلم أنّ المجرمين يخلدون في النار ؟

فأجاب شفاليه : أنا لا أعتقد بأي شيء ممّا ذكرته ، ولا أُصدّق بيوم القيامة والجنّة والنار ، فأنا من أتباع لوترم»[٣٧] .

إذن فمن غير الصحيح النظر إلى جميع المجرمين من منظار واحد ، وبالتالي معالجتهم بأسلوب واحد . فثمّة فارق أساسي بين الذين يسقطون في الرذائل الأخلاقية بسبب الفقر أو البيئة الفاسدة أو فقدان الولي وبين الذين يرتكبونها لأنّهم لا يؤمنون بشيء . فلكلّ من المجموعتين علاجها الخاص بها . فينبغي إذن تصنيف الفاسدين ودراسة سلوكياتهم واستقصاء عللها ، ليتسنى علاجهم . وإنّ معرفة هذه العلل ومعالجتها ليس بالأمر الهيّن ، ولا يتحقّق بأيّ موعظة أو نصيحة كانت . فهذا العلم دقيق للغاية ويتطلب رجالاً أذكياء ومحنّكين لتعلّمه واستخدامه .

ـ الفن ، من الوسائل المعتمدة في الإصلاح الأخلاقي لأبناء المجتمع فهو يحقّق نتائج جادّة في هذا المجال .

فإزالة صدأ الروح ورين القلب ، بالشكل الذي لا يضرّ بالروح والقلب ، عمل دقيق ، يتطلّب فنّاناً يستخدم أدواتٍ فنيّة .

ولقد استخدم القرآن أجمل الأساليب وأروع الفنون لإصلاح الناس ، حيث دعا إلى إصلاح ذوي الأمراض الخلقية ، بأساليب جميلة تتواءم مع الروح ، فتلين لها أخشن

---

(٣٧) سفرنامه شاردن ، ترجمة إقبال يغمابي ج ١ ، ص ١٩ ، طهران .

الطباع .

والإمام علي عليه السلام كما نجده في « نهج البلاغة » ، استفاد من أبلغ الكلام وأروعه وأبدعه في اجتذاب المنحرفين إلى طريق الصلاح .

ـ **تاريخ الماضين** ، وما يستبطنه من نتائج وانعكاسات أعمالهم الحقّة والباطلة ، له تأثير كبير في تعزيز الأخلاق الحسنة .

فالتاريخ من هذا المنظور كتاب عبرة ومصدر إلهام وعودة إلى الذات .

وكرّر القرآن ذكر أقوام من قبيل : عاد وثمود ولوط وسبأ ، تهاوت وهلكت إثر انحرافاتهم الأخلاقية واتّباع هوى أنفسهم ، وذكر أقواماً أدّت أعمالهم الحسنة إلى فلاحهم .

وتترتّب على التذكير بتاريخ الماضين نتائج تظلّ باقية في النفوس إذا تمّت الإشارة إلى صور جميلة وأفراد أبدعوا الجمال وتمتّعوا بسلامة أخلاقية كاملة ، وإذا عُرضت نماذج من أعمالهم الحسنة وصور من حياتهم ، كأن نتحدث في التاريخ الإسلامي عن مجتمع ظل بعيداً عن التناحر والصراع والانحراف ، الأمر الذي عطّل عمل القضاة آنذاك[٣٨] .

وفي التذكير بتاريخ الماضين تؤدّي الإشارة إلى حياة القدوات الطاهرة مثل نوح[٣٩] وموسى وعيسى ومحمّد[٤٠] إلى تلطيف الأرواح ورفع الأخلاق السيئة .

وبصدد تأثير القصص والتاريخ في النفوس نقل الخواجة عبدالله الأنصاري عن أحد أساتذته ؛ أنه سُئل عن ذلك فقال : يقول الله تعالى : ﴿ **وكلّاً نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك** ﴾[٤١] فتهون عليك المصيبات .[٤٢]

وتقوم الآثار التاريخية للماضين بدور فاعل في تدعيم البنية الأخلاقية والسلامة النفسية للفرد والمجتمع .

---

(٣٨) د . محمد حسين ساكت ، نهاد دادرسي در إسلام ، ص ٧٧ ، آستان قدس .

(٣٩) الممتحنة : ٤ .

(٤٠) الأحزاب : ٢١ .

(٤١) هود : ١٢٠ .

(٤٢) طبقات الصوفية ، تقريرات خواجه عبدالله الأنصاري ، ص ٢ .

فالآثار العظيمة لأصحاب القدرة المتروكة بلا مالك لها ، تنطوي على عبرة تفيد بهلاك كل شيء من قدرة وعزّة وثروة ، ولا يبقى إلّا الذكر الحسن .

فقد مرّ الإمام علي عليه السلام مع جماعة من الناس على إيوان كسرى ، فأنشد أحدهم شعراً فيه عبرة ، فقال عليه السلام : **أفلا قلتم ﴿كم تركوا من جنّات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾**[٤٣] . **إنّ هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين . لم يشكروا النعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية . إيّاكم وكفر النعم لا تحلّ بكم النقم** [٤٤] .

وكانت للبيوت الصغيرة العادية لنساء النبي صلى الله عليه وآله تأثيرات في الزائرين الذين يتوافدون من مختلف مناطق البلاد الإسلامية ، أكثر من مئات الدروس الأخلاقية . إذ كان محبّو النبيّ صلى الله عليه وآله يحاولون الاقتداء بزهده في الدنيا عندما يشاهدون عياناً بيوته المبنية من الطين بسقوفها التي تصل إليها الأيدي لشدّة انخفاضها . وقد انمحت للأسف تلك الآثار بعدما هدمها الوليد بن عبدالملك .

وقد قال عطاء الخراساني : «أدركت حُجر أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود . فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ يأمر بإدخال حجر أزواج النبي صلى الله عليه وآله في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم .

فسمعت سعيد بن المسيّب يقول يومئذ : والله لوددت إنهم تركوها على حالها ينشأ ناشئ من أهل المدينة ويقدم القادم من الأفق فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته فيكون ذلك مما يزهّد الناس في التكاثر والتفاخر»[٤٥] .

إنّ الشيعة تريد من الحفاظ على آثار العظماء ، إحياء سيرهم علاوة على حفظ الشعائر الإسلامية ، فبيت الإمام الصادق عليه السلام الصغير في محلّة بني هاشم في المدينة ظلّ لقرون عبرةً للناس .

واليوم هل نجد في سبيل حثّ الناس على القناعة والإيثار والكفاف موعظة أفضل

---

(٤٣) الدخان : ٢٥ ـ ٢٩ .

(٤٤) بحار الأنوار ج٧٨ ، ص ٨٤ ، ص ٣٢ ص ٤٢٣ .

(٤٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج١ ، ص ٥٠٠ . دار صادر .

من مشاهدة البيت الصغير للإمام في جماران ؟ البيت الذي كان محلّ السكن ومركز السياسة . وما أكثر الأفراد الذين تغيّرت أحوالهم وانتابهم إحساس بأنهم في محضر رسول الله ﷺ عندما شاهدوا حياة الزهد والإعراض عن الدنيا(٤٦) .

العمل بالقيم

لاشك في نفوذ العمل في النفوس بصفة أنّ مئات الكلمات تفقد تأثيرها إن لم يرافقها العمل .

فالعمل يجسّم الفكر والكلام ودوره أكبر من الخطابة والكتابة في توصيل المبادئ. فإذا لم يقترن الكلام الحسن بالسلوك الصحيح ترتّبت عليه آثار معكوسة . وقد وصفت الروايات العالم بلا عمل ، بقاطع طريق ومفسد يبعد الناس عن الحق .

قال الإمام الصادق عليه السلام : « **أوصى الله عزّوجلّ إلى داود عليه السلام : لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدّك عن طريق محبّتي . فإنّ أولئك قطّاع طريق عبادي المريدين** »(٤٧) .

وقال الإمام علي عليه السلام : « **قصم ظهري عالم متهتّك وجاهل متنسّك . فالجاهل يغشّ الناس بتنسّكه والعالم يغرّهم بتهتّكه** »(٤٨) .

فالعالم المتهتّك لا يقود نفسه إلى الانحراف وحسب ، إنّما يغرّ انشداده للدنيا ولهثه وراء الجاه ، الآخرين ويصير حجاباً يمنع من معرفة الإسلام ، ومن هنا كان خطر العالم الفاسد أشدّ من الأخطار كافّة . وهنا يطالعنا هذا النص عن الإمام الخميني :

«إنّ أكثر أصحاب البدع الذين تسبّبوا في إضلال وانحراف الكثيرين كانوا من العلماء ، بعضهم درس في المراكز العلمية وارتاض . فرئيس إحدى الفرق الباطلة درس في حوزاتنا . لكن دراسته لم تترافق مع التهذيب والتزكية ، فلم يخطُ في سبيل الله . . . وتحمّل كل تلك الفضائح »(٤٩) .

---

(٤٦) محمد سپهري ، خورشيد سي غروب ، ص ٢٤٠ ، سازمان تبليغات اسلامي .

(٤٧) الشيخ الصدوق ، علل الشرايع ، ص ٣٩٤ باب ١٣١ ، دار إحياء التراث العربي .

(٤٨) بحار الأنوار ج٢ ، ص ١١١ .

(٤٩) الإمام الخميني ، الجهاد الأكبر ، ص ٢٩ .

وفي الجانب الآخر نلاحظ أنّ السيرة الصالحة للعلماء ، استطاعت قبل أيّ خطاب آخر أن تقوم بدور الإصلاح . وهو ما يؤكّده الرسول ﷺ بقوله : «إنّكم لن تسَعوا الناس بأموالكم بل تسَعوهم بأخلاقكم»(٥٠) .

والمراد من الأخلاق تحوّل الصفات الحميدة إلى ملكات نفسية .

ويتبدى من خلال دراسة المجتمعات الإسلامية أنّ المنطقة التي يوجد عالم حسن السيرة بين أهلها ، ينحو أهلها إلى الصلاح ، وإن وجود مراكز للتهذيب في المدن جعلها تعرف بدار المؤمنين ، وهذا الأمر يتجلّى في النص الخميني أدناه :

«كنت أشاهد في بعض المدن التي أزورها في الصيف التزام أهلها الشديد بالآداب الشرعية . وكان السرّ يكمن في وجود عالم صالح ومتّقٍ في أوساطهم . فإذا وُجد عالم ورع وأمين في مجتمع أو محافظة ، كان ذلك مدعاة لتهذيب أبناء تلك المنطقة وهدايتهم . حتى لو لم يدعُهم ويرشدهم لفظاً»(٥١) .

وثمّة نماذج عديدة لهذا الأمر من التاريخ الشيعي ، من جملتها ما أفيد عن حياة المجلسيّ الأوّل : «من انه : كان أستاذاً في الفقه والتفسير والحديث ، وكان في الزهد والتقوى تالي تلو أُستاذه الملا عبد الله ، يشتغل في تهذيب الأخلاق وترويج الأحاديث . وقد كان له الفضل في انتشار أحاديث أهل البيت في مدينة إصفهان ، وهداية جمع كثير من الناس»(٥٢) .

«أما الشيخ محمد تقي النوري والد المحدث النوري فكان قدوة في الأخلاق ، فكان كالأب الرحيم ، يرعى الناس ، ويلتفت إلى الفقراء والمحرومين ، وله في تربية الطلاب سهم وافر ، وبسبب كمالاته المعنوية اتّجه إليه الناس من المدن والقرى لتعلّم المسائل الدينية والكمالات المعنوية»(٥٣) .

وكان الشيخ جعفر الشوشتري عالماً مهذّباً ، وله تأثير كبير في تهذيب النفوس وترسيخ الأخلاق بين الناس .

---

(٥٠) بحار الأنوار ج ٧٤ ، ص ١٦٦ .

(٥١) الجهاد الأكبر ، ص ٣٨ .

(٥٢) عباس القمي ، الفوائد الرضوية ، ص ٤٤٠ .

(٥٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٤٣٦ .

وقد كُتب حول كتابه **منهج الرشاد** :

«كان لكلماته النافعة وجمله البليغة ، أبلغ الأثر في قلوب مطالعيه بسبب ما كان ينطوي عليه الشيخ من علوّ النفس في مقام العلم والعمل ، إضافة الى صناعة الوعظ وملكة الهداية والإرشاد ، ولهذا كان ﷺ صاحب أنفاس قدسية وكرامات عالية»(٥٤) .

أمّا الشيخ إبراهيم المظفر فبعد أن أنهى دراسته في النجف ، سكن في البصرة بهدف نشر المعارف والأحكام الشرعية والأخلاق ، فاستطاع بما بذله من جهود كبيرة أن يحقّق تحوّلاً ملموساً في أخلاق البصريين وعقائدهم . وقد شكر الناس له خدماته وثمّنوا مساعيه .

وفيما يتصل بنجاحه كتب صاحب **معارف الرجال** :

«ميل الناس إليه وعكوفهم عليه بمختلف طبقاتهم لأنّه كان يطعم الطعام ويفشي السلام برحابة صدر وطلاقة وجه ولم يزل بابه مفتوحاً للزائرين من الضيوف وغيرهم»(٥٥) .

وكُتب بصدد سرّ النجاح الذي حالف الشيخ حسن في تهذيب أخلاق البصريين: «إنه كان من أهل العلم ، والمجاهدة مع النفس»(٥٦) .

مع الناس وبينهم

تجلّى ممّا سبق أن صيرورة الكمالات ملكة نفسية والعمل بالعلم مدعاة لنجاح العلماء في إيجاد الفضائل الأخلاقية .

ولابدّ من أن نضيف أنّ العمل بالعلم وتهذيب النفس والتمسّك بالرسالة الأخلاقية لن يثمر إلّا بالحضور في أوساط الناس . فليس الكمال الأخلاقي في أن يجلس العالم في زاوية بيته معتزلاً الناس عاكفاً على تهذيب نفسه وإصلاحها وحسب باعتبار أنّ ذلك منهاج العابدين والمعرضين عن الدنيا . فمن لا يهتم إلّا بنفسه ليس مقصّراً بمسؤوليّته التبليغية وحسب ، إنّما قصّر أيضاً في بناء ذاته ، فليست التقوى في اعتزال الناس ، إنّما

---

(٥٤) نجوم السماء ج٢، ص ١٦.

(٥٥) محمد حرز الدين، معارف الرجال، ج١، ص ٣٩، مكتبة آية الله مرعشي نجفي.

(٥٦) المصدر السابق نفسه.

هي في الحضور في المجتمع ، فالملكات النفسية تظهر إثر تصارع الأضداد ومواجهة الفتن الدنيوية ، علاوة على أن الناس هم أولياء نعمة الحوزة ، فمن الطبيعي أن تؤدي الحوزة وظيفتها في تهذيب نفوسهم وتنمية فضائلهم .

«رُوي أنّ داود عليه السلام خرج مصحراً منفرداً ، فأوحى الله إليه : ياداود مالي أراك وحدانيّاً ؟ فقال : إلهي اشتدّ الشوق منّي إلى لقائك وحال بيني وبينك خلقك . فأوحى الله إليه : ارجع إليهم فإنّك إن تأتني بعبد آبق أُثبتّك في اللوح حميداً»(٥٧) .

وتبيّن الرواية المكانة الرفيعة لهداية الناس وإرشادهم . ويضحى محروماً من الكثير من البركات من يهتمّ بنفسه وأولاده فقط ويتجاهل الناس . وقد عاش الأنبياء ـ وهم قدوات الفضائل ـ بين الناس وشاركوهم آمالهم وآلامهم ، يرغّبون المحسنين وينذرون المسيئين ، ويرأفون بالجميع كأنّهم آباؤهم .

ونبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله عاش بين الناس ، وكان يزورهم في بيوتهم ويشاركهم مسرّاتهم وأتراحهم ويحلّ لهم مشاكلهم .

بدوره الإمام علي عليه السلام لم يبتعد عن الناس حتّى في ذروة الأزمات التي واجهها أثناء خلافته . فكان يُدخل على قلوبهم السرور ويعالج أمراضهم الأخلاقية .

فحضور العلماء إلى جوار الناس يعود بالاستقرار النفسيّ على الجميع ويقود المجتمع إلى شاطئ السلامة .

فإنّ الحضور وسط المجتمع ، يفيد العالم في التوفّر على معرفة بالناس والبيئة والزمان ، ويجعل أفئدة الناس تهوي إليه . ويساعد التعاون المشترك بين الطرفين على رفع المشاكل الأخلاقية .

في السابق كان حضور العلماء وسط المجتمع أشدّ من الحاضر ، إذ كانت أغلب المناطق لا تخلو من توافر العلماء الذين ساعدوا على إزالة الكثير من التوترات الأُسرية وحلّ النزاعات المالية . فلم يكن الناس يومذاك يترافعون في المحاكم .

وفي عصرنا هذا تتراجع معدّلات الجرائم الأخلاقية وتخفّ حدّة الاختلافات في أيّام شهري محرّم ورمضان عندما يسجّل حضور مكثّف للعلماء بين الناس ، بل يصل الأمر أحياناً إلى غياب المراجعين عن المحاكم .

---

(٥٧) بحار الأنوار ج١٤ / ٤٠ .

يقول الشهيد بهشتي :

«أتذكّر ، أنّ عالماً نشيطاً يدعى الشيخ إبراهيم ﷺ كان يعيش في (نجف آباد) في إصفهان ، ووقتذاك حيث كنّا طلّاباً شباباً سألت عن وضعه بين الناس ؟ فقيل : إن الناس يحبّونه من صميم قلوبهم . فهو إمام الجماعة والمدرّس والواعظ والخادم لهم . وأضيف : فمثلاً كانوا أحياناً يطرقون بابه عند منتصف الليل قائلين له : عجز كبار القوم عن حلّ نزاع أسري فاضطررنا لطلب العون منك ، فنرجو أن ترافقنا لإصلاح ذات البين »[٥٨] .

إيجاد الأرضية المناسبة لترسيخ القيم

ثمّة علاقة وثيقة بين ظهور القيم وضمورها ، وبين الأحداث والقضايا الاجتماعية . فالحديث المعروف عن الرسول ﷺ : «لولا الخبز ما صلّينا»[٥٩] ، يبيّن الحقيقة التي تعتبر أنّ عدم تأمين المعاش ينعكس سلبياً على الاستقرار النفسي وعلى طاعة المرء لله.

فالتديّن والمعنويات والعزّة والعفّة والأخلاق ، ترتبط في كل مجتمع بالنظام المعيشي فيه . فالظلم والإجحاف وانعدام الأمن والفقر والبطالة وهمّ الأهل والأولاد ، والاضطراب ، تشكّل أرضية خصبة للانحرافات الخلقية .

وقد أوضح الإمام علي عليه السلام الرابطة بين الأحداث الاجتماعية والقضايا القيمية ، بقوله : « .. **فإذا أدّت الرعية إلى الوالي حقّه ، وأدّى الوالي إليها حقّها عزّ الحقّ بينهم ، وقامت مناهج الدين ، واعتدلت معالم العدل وجرت على إذلالها السنن ، فصلح بذلك الزمان وطُمع في بقاء الدولة ، ويئست مطامع الأعداء .**

وإذا غلبت الرعية واليها ، أو أجحف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة ، وظهرت معالم الجور ، وكثر الإدغال في الدين ، وتُركت محاجّ السنن ، فعُمل بالهوى ، وعُطّلت الأحكام، وكثُرت علل النفوس »[٦٠] .

من هنا قام الأنبياء الإلهيين قبل كل شيء بإيجاد الأرضية الاجتماعية الصالحة لنموّ المكارم ؛ ليستأصلوا جذور المعاصي وعوامل الفساد وبالتالي يرسّخوا أشجار

---

(٥٨) أو به تنهايى يك ملت بود ، دفتر أول ، ص ٣٠٠ ، بنياد شهيد .

(٥٩) بحار الأنوار ٦٦ ، ص ٢٦٨ .

(٦٠) نهج البلاغة ، الخطبة ٢١٦ ، صبحي الصالح .

الإيثار والإحسان في الأرض الصالحة ، وعلى هذا الأساس كان الأنبياء يدعون الناس إلى العدالة الاقتصادية بعد دعوتهم إلى التوحيد .

﴿وإلى مَدْيَنَ أخاهُم شُعيباً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بيّنة من ربّكم فأوفوا الكيل والميزان..﴾[٦١] .

إنّ البطالة والفقر والظلم وانعدام الأمن والاستقرار النفسيّ والروحيّ .. تُفقِد الفرد توازنه وتجرّه إلى الانحراف .

وحسب الشهيد مطهري فإنّ :

«الذنب هو انفجار في الأغلب ، مثل القِدر البخاريّ الذي تتكاثف فيه الأبخرة وليس فيه أي منفذ أو صمّام للأمان ، فينفجر في نهاية الأمر . والإنسان أيضاً ينفجر بالذنوب»[٦٢] .

ويتجلّى من خلال المجامع الروائية وسيرة النبي والأئمة والعلماء ، أنّ ثمّة مسؤولية تقع على عاتق العلماء ، وأنّ النهوض بها يتحقّق عندما يصلحون أنفسهم فلا يكونون ـ وهم يتلبّسون بلباس العلماء ـ قطّاع طرق ؛ لتبقى مكانة الحوزات مصانة ومحترمة في عيون الناس ، ويظلّ خطابها يلقى آذاناً صاغية.

وقد قال محمد جواد مغنية بشأن إصلاح الحوزات :

«وبعد أن أصبحت العمامة شعاراً مقدّساً بحكم العادة واستمرارها ، وجَب صيانتها من يد العابثين وضحكة الهازئين ، وجَب على أهلها الحقيقيين أن يُلزموا أولي الأمر بسنّ قانون يحوطها من الفوضى ، ويصونها من جاهل منتحل ومراءٍ محترف . لو تزيّا غير الشرطي بزيّ الشرطي لعاقبه القانون ، فهل تأتي الأيام ونرى لمرجع ديني كبير ما لشرطي صغير من نظام يحفظه ويرعاه ، وإن عجز أهل الدين والعلم الصحيح عن إيجاد هذا النظام فألف خير لهم وللمجتمع أن يسيروا مكشوفي الرأس ، أو يلبسوا الكوفية والعقال ، من أن يتزيّا بزيّهم الجهلاء والدخلاء .»[٦٣] .

---

(٦١) الأعراف : ٨٥.

(٦٢) الشهيد مطهري ، تعليم وتربيت در إسلام ، ٢٦٢ ، الزهراء .

(٦٣) محمد جواد مغنية ، الشيعة في الميزان ، ٣٩٤ ، دار الجواد ، بيروت .